الاوربية انكلترا وفرنسا والمانيا واسبانيا من المباراة وكلٌّ منها تودُّ ترجيح قدمها في تلك البلاد حتى تكون لها وغرضهُ حث الاميركيين على امتلاك الاراضي فيها. ولا شبهة عندنا انهُ اذا صارت البلاد للدولة اوربية تغيراتها تستثمر وسكانها يتحسنون ولكن هل ذلك اصلح لهم من ان يبقوا مستقلين ويجاروا الاوربيين في عمرانهم كما فعل اهالي اليابان كلاً. ولا تصلح حالهم اذا صاروا للدولة اوربية الاَّ اذا كان في عروقهم دم يجعلهم ارقى من الاوربيين وفي عاداتهم متسع لكل اصلاح جديد فيصيرون حينئذٍ مثل اهالي كندا واستراليا بالنسبة الى اهالي انكلترا. واذا كانوا كذلك فالاستقلال التام خير لهم على كل حال ولكن اذا بقوا على ما هم فيهِ من الجهل والتخاذل واذا كانت اخلاقهم وعاداتهم لا تؤذن لهم باقتباس العمران الاوربي فلا مناص لهم من زيادة الضعف والاضمحلال الى ان يصيروا غنيمة باردة للدولة اوربية

حرب القرم

(٣)

قلنا في آخر الفصل الذي نشرناهُ في الجزء الماضي عن هذه الحرب المشومة ان عمر باشا طلب من البرنس كورتشاكوف ان يخرج من الاملاك العثمانية في خمسة عشر يوماً. ونقول الآن ان البرنس كورتشاكوف اجاب عمر باشا ان مولاهُ القيصر لم يفوّض اليهِ ان يخابر احداً في الحرب او في الصلح او في الجلاء من تلك الامارات. وقال الكونت نسلرود وزير روسيا للسر هملتون سيمور سفير انكلترا في بطرس برج ان الحرب قد أعلنت علينا والمرجح اننا لا نفر منها لكننا لا نتخذ خطة الهجوم بل خطة الدفاع فنقف مكتوفي الايدي ولكننا ندفع كل من يتهجَّم علينا إنْ في الامارات او في تخومنا الاسيوية وسنبقى كل هذا الشتاء منتظرين ما تعرضهُ تركيا علينا من شروط الصلح

وفي الخامس والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٥٣ صعدت العمارة الروسية في نهر الدنيوب وهي مؤلفة من باخرتين وثماني مدفعيات فاطلقت المدافع العثمانية النار عليها وقتلت بعض رجالها. وهجمت فصيلة من الجنود العثمانية في باطوم على حامية حصن نيكولاي سنة السابع والعشرين من اكتوبر وكادت تستخلص ذلك الحصن منها. اي ان الدائرة دارت على الروس في اوربا وفي اسيا ايضاً في اول مناوشة لكن الروس اخذوا بثارهم في اسيا وتغلبوا على

الجنود العثمانية في معارك متوالية . وبقي النصر حليفاً للجنود العثمانية في اوربا لان قائدها عمر باشا (وهو نمسوي اسمهُ ميخائيل لاتاس) كان من امهر القواد وشجعهم . وتوالت المعارك في اسيا واوربا والفوز حليف الجنود العثمانية في اوربا والروسية في اسيا الى اواخر يناير . وقد سرَّت النمسا بفوز الجنود العثمانية في امارات البلقان لانها تبعد روسيا عنها . قال انكوت بول وزير النمسا لسفيره البارون فون ميندرف سفير روسيا في فينا ان سياستي في المسألة الشرقية لم تتغير فقد بلغني ان قيصرك عازم ان ينال مأربهُ من تركيا فان اصرَّ على عزمه فاوربا كلها تقوم عليه واكون انا بريئاً مما يجري . فقال لهُ البارون ان مولاي القيصر يرى الامور على غير ما نرونها والاوامر التي امرني بها تضطرني ان ابلغ عليكم لكي تعربوا لي عن الخطة التي انتم عازمون على اتباعها من غير تردد . فقال انكوت اذا كان الامر كذلك فلا تسمح لي ذمتي الاَّ بان اكشف لمولاي الامبراطور عن مقاصدكم وهو لا يسمح لكم بان تتمادوا في خطتكم لانهُ لا يستطيع ان ينقاد اليكم وسيرى قيصرك ان كل ملوك اوربا يتخون عنهُ فيمسي وحيداً . وفي المذاكرات التي دارت بين روسيا من جهة وبين النمسا وبروسيا من اخرى لاكبر دليل على ان المصالح الدولية لا يراعى فيها دين ولا نسب ولا فضل سابق والاَّ لما تخلت عاتان الدولتان عن روسيا في حاجتها اليهما

وكان مؤتمر فينا لا يزال عاملاً ولو ظن البعض ان نشوب الحرب قضى عليهِ فعرض وساطتهُ بين المتحاربين على شرط ان يوقفا الاعمال الحربية حالاً وان لا ينزع شيء من املاك الدولة العثمانية لان حفظ املاكها لها ضروري لحفظ السلام العام في اوربا . وطلب من الحكومة العثمانية ان تخبرهُ عن الشروط التي تشترطها للشروع في المخابرة بالصلح وكان ذلك في الخامس من دسمبر

واتفق ان اسطولاً عثمانياً صغيراً مؤلفاً من سبع فرقاطات وسفينتين من نوع الكورفت وباخرتين صغيرتين دخل البحر الاسود حاملاً الميرة لحامية باطوم فعصفت الانواء في طريقهِ واضطرتهُ ان يرسو في سنوب وهي على منتصف الطريق بين القسطنطينية وطرابزون وكان ذلك في اواخر نوفمبر ورأتهُ بعض السفن الروسية التي كانت تجول في البحر الاسود مفتشة عن العمارة العثمانية فعادت واخبرت الاسطول الروسي فاقبل مسرعاً ولما رآهُ الاسطول العثماني بادرهُ باطلاق المدافع لكن دارت الدائرة عليهِ ولم ينجُ منهُ سفينة وكان على البر بطاريات من المدافع فاتلفتها المدافع الروسية واضرَّت بالمدينة ايضاً ضرراً كبيراً

وذاعت اخبار هذه الواقعة في اوربا فخابت الآمال ورأى الناس انهُ لم يبقَ سبيل للصلح

وان روسيا فعلت ما فعلت لتقنع اوربا بذلك وانها تعمّدت العداء لتركيا ولاوربا كلها

ولا يفسّر وصولهم الى هذه النتيجة الاّ بانهم كانوا يقصدون توسيع الطرق بين تركيا وروسيا واسعار نار الحرب بينهما ولو اشتركت فيها اوربا كلها لغاية يتألم الذين يصنعون الاسلحة ويوردون الميرة ثم يقرضون اموالهم للدول ويتقاضون رباعاً وهم في بيوتهم آمنون لا تعب ولا نصب

واحتجّت روسيا على تفسير الدول لفعلها هذا ببرهنة انها انما فعلت ما فعلت وقايةً لنفسها ودفاعاً عن سوءها . ولكن لم يصغ احد الى قولها لان الاصغاء قد يمنع الحرب . وقد فازت الجنود العثمانية على الجنود الروسية فوزاً مبيناً في اوربا ولكن لم يعترض احد عليها لان الاعتراض يؤخر الحرب ولا يعجلها كالاعتراض على روسيا

واشارت فرنسا حينئذٍ ان تدخل العمارة الفرنسوية والعمارة انكليزية البحر الاسود وتصدّا العمارة الروسية عن الاتصال باملاك روسيا في اسيا وان تحتلا ذلك البحر مقابل احتلال الجنود الروسية لامارات البلقان ولا تخرجا منهُ الاّ بعد ما تخرج الجنود الروسية من الامارات . فوافقتها الحكومة الانكليزية على ذلك ودخلت العمارتان البحر الاسود وبعثتا بقرارها الى حامية سفاستوبول . فاستغربت روسيا فعلهما وبعثت تسأل انكلترا وفرنسا السؤالين التاليين الاول ان كان الاسطول الروسي قد مُنع من مهاجمة الاسطول العثماني والسواحل العثمانية فهل مُنع الاسطول العثماني ايضاً من مهاجمة الاسطول الروسي والسواحل الروسية . والسؤال الثاني ان كان يباح للاسطول العثماني ان ينتقل من مرفإ الى آخر لحماية السواحل العثمانية أفلا يباح للاسطول الروسي ان يفعل فعلهُ وينتقل من مرفإ الى آخر ايضاً لحماية السواحل الروسية . فاجابت فرنسا وانكلترا عن السؤال الاول ان الاسطولين ممنوعان من الهجوم على حدٍ سوى واجابتا على السؤال الثاني ان الاسطول العثماني حرٌ في التنقل ولكن الاسطول الروسي غير حرٍ . ولو اجابتا بغير ذلك لاوقفتا الحرب . فرأت روسيا انهُ لم يبقَ امامها الاّ الحرب رضيت او كرهت وفي الرابع من فبراير سنة ١٨٥٤ انقطعت العلاقات السياسية بين روسيا من جهة وفرنسا وانكلترا من اُخرى

وحاول القيصر ان يحمل النمسا وبروسيا على الانتصار لهُ او على التزام الحياد فلم يفلح وبيّنتا لهُ ان اشتراكهما في مؤتمر فينا وفي لائحته يربطهما ادبيّاً مع انكلترا وفرنسا . لكن نبوليون الثالث اراد ان يجرب التوسط مرةً ثانية فكتب الى القيصر كتاباً يقول

« اذا كنتم جلالتكم عازمين في السلم كما ارغب انا فيهِ فلا اسهل من المهادنة الآن وقض

المشكل بالسياسة بعد ان تخرج الجنود الروسية من الامارات وتخرج سفننا من البحر الاسود. واذا شئتم ان تحلوا ما بينكم وبين تركيا من المشاكل وحدكم ففوضوا واحداً من قبلكم ويفوّض الباب العالي واحداً من قبله وهذان المفوضان يعرضان ما يتفقان عليه على الدول الاربع فاذا رضيتم جلالتكم بهذا الحل الذي وافقتني عليه ملكة الانكليز عاد السلام الى نصابه وسادت السكينة. وليس في هذا الاقتراح شيء يسيء جلالتكم او يهين شرفكم ولكن ان رفضتم العمل بهذا الاقتراح لاسباب يصعب علينا فهمها فرنسا وانكلترا تضطران ان تحكما الحرب لفض هذا المشكل الذي يسهل فضهُ الآن بالراي والتدبير »

فاجابهُ القيصر « لقد بذلت جهدي في حفظ السلم وضحيت كل ما يمكنني تضحيته من غير ان يُمَس شرفي وانني في طلبي تثبيت الامتيازات التي نالها ابناء مذهبي في تركيا منذ عهد طويل بدماء شعبي لم اطلب ما لم يكن مؤيداً بالمعاهدات. ولو تُرك الباب العالي لنفسهِ لزال الخلاف الذي بيننا قبل الآن. ولكن تعرّض قوم لشؤوننا تعرضاً غير محمود نتج عنهُ هذا الارتباك. ولقد بلغني ان الدولتين اللتين تدمران تركيا بارسال المدد لجنودها عزمتا ان تمنعا سفننا من السير في البحر الاسود اي انهما عزمتا على صدنا عن حماية سواحلنا فاترك الامر لجلالتكم لتحكموا هل هذا من مسهلات الصلح وهل يصح لي بعد ذلك ان اقبل بما اقترحتموهُ عليَّ وهو اخلاء الامارات حالاً لاجل المهادنة والمخابرة مع الباب العالي في الاتفاق الذي يعرض على مجلس الدول الاربع. فهل تقبلون انتم بمثل هذا الاقتراح لو كنتم في محلي هل تسمح لكم وطنيتكم بقبول ذلك كلا واتجاسر واقول كلا فاسمحوا لي اذاً ان اجري على مقتضى عقلي ومهما كان قراركم فالوعيد لا يثني عزمي فاني واثق ومحق في دعواي وستثبت روسيا سنة ١٨٥٤ انها هي البلاد التي كانت سنة ١٨١٢ وانها لا تختلف عن منهاجها المقدّس اذا اجتاح الاعداء تخومها بل نحن مستعدون للقائهم بالبسالة التي ورثناها من اجدادنا الاماجد. السانحين الروسيين الذين ثبتت بسالتهم في حوادث سنة ١٨١٢ قدرنا الله القدير على اثبات اقوالنا بالافعال »

وفي السابع والعشرين من فبراير أُرسلت رسالتان من باريس ولندن الى بطرس برج في وقت واحد وفي معنى واحد يدعى بهما القيصر لاخراج جنوده من الامارات قبل الثلاثين من ابريل وان ابى عُدَّ اباؤهُ بمثابة اعلان الحرب. ووصلت الرسالتان الى بطرس برج في الثالث عشر من مارس وجاء قنصل فرنسا وانكلترا بهما الى الكونت نسلرود في اليوم التالي ودعيا في الثامن عشر من الشهر ليسمعا جواب الحكومة الروسية وهو ان القيصر لا يرى انهُ يليق بهِ ان يردَّ جواباً

وفي السابع من شهر مارس اي قبل وصول الرسالتين الى بغرس برح طلب ناظر المالية الفرنسوية من مجلس النواب ان يقترض مئتين وخمسين مليون فرنك قائلاً ان بعض التجهيزات البحرية والبعثات الحربية الى بلاد بعيدة لتقضي افقات لم يعدّ لها مال في الميزانية فقبل طلبه . وكان مجلس النواب الانكليزي قد صادق على ثلاثة ملايين من الجنيهات لنفقات مثل هذه . وفي السابع والعشرين من مارس قرئ في البارلمنت الانكليزي رسالة من الملكة وفي البارلمنت الفرنسوي رسالة من الامبراطور والرسالتان بمعنى واحد وهو ان الحرب نشبت بين انكلترا وفرنسا من الجهة الواحدة وروسيا من الجهة الاخرى . وامضيت معاهدة سيف الاستانة مفادها ان تينك الدولتين تساعدان الدولة العثمانية بجنودها وبوارجهما . واتفقت معهما النمسا وبروسيا على انهُ لا يعقد صلح مع روسيا الاَّ واول اساس له اخلاء الامارات وحفظ استقلال الدولة العلية حتى لا يشغل بال النمسا بمتاخمة دولة قوية كروسيا لها

وعين المارشال سنت ارنو قائداً عاماً للحملة الفرنسوية في الشرق وذلك في ١١ مارس وامر الجنرال كانروبر بالمسير بجنوده في التاسع عشر من الشهر فوجد ١٥ الفاً من الجنود الانكليزية في مالطة كانوا قد قاموا من انكلترا في شهر فبراير بقيادة لورد رغلان . اما لورد رغلان فقام من انكلترا في العاشر من ابريل وقام معهُ دوق كمبردج و بلغا الاستانة في التاسع والعشرين من ابريل . ووصلها المرشال سنت ارنو في اليوم التالي . وفي الثاني والعشرين من ابريل وصلت العمارة الانكليزية والعمارة الفرنسوية الى امام مدينة اودسا واطلقتا المدافع عليها عشر ساعات متوالية فاتلفتا حصونها وحرقتا معاملها ومخازنها . ونشر القيصر منشوراً في بلاده يقول فيهِ « انهُ في اليوم الذي اجتمع فيهِ السكان للاحتفال بموت ابن الله المصلوب لاجل فداء البشر خربت اساطيل الدول مدينة السلام والتجارة التي تقصدها اوربا كلها وقت الجوع فتجد امراءها مفتوحة لها »

وجاء المرشال يسكيوتش في اواخر ابريل ليقود الجنود في امارات البلقان تحت يد البرنس كورتشاكوف فجمع جانباً كبيراً منها قرب بخارست ثم قطع الدنيوب وحاصر مدينة سلستريا وهي اكبر المدن هناك واحصنها فدافعت حاميتها العثمانية ودفاع الابطال ودام الحصار الى الثالث والعشرين من شهر يونيو . ولما يئس الروس من فتحها اتلفوا مدافعهم وعادوا الى شمال الدنيوب بعد ان خسروا خسارة كبيرة

وكتب الملازم نسمث الانكليزي (وكان ضابطاً في الجيش العثماني) الى جريدة التيمس يقول كان عند الروس متون مدفعاً مسدَّدة على سلستريا قذفوا بها اكثر من خمسين الف قنبلة

وحفروا سبعة الغام واستمروا اربعين يوماً في حصار المدينة والهجوم عليها لكنهم لم يأخذوا شبراً منها ويقدر عدد القتلى والجرحى والمرضى من الروس في حصار هذه المدينة باثني عشر الفاً

ثم نشت انكوليرا في الجنود الفرنسوية وظهرت ايضاً في معسكر الانكليز ومات بها خلق كثير فسئمت الجنود وقوادها وعزموا ان يتركوا مستنقعات الدنيوب وعفونتها ويقصدوا الروس في بلاد القرم . وكانت النمسا قد صممت على مهاجمة جناح الروس الايمن من الشمال وطلبت من قائد الجنود الانكليزية وقائد الجنود الفرنسوية ان يهاجماها من الجنوب حتى تخرج من امارات البلقان لكن القائدين كانا قد صمما على الذهاب بجنودهما الى القرم هرباً من فساد هواء وادي الدنيوب ورغبة في كسب الفخر العظيم بالتغلب على امنع حصون الروس . ولما رأى الروس ذلك اخلوا امارات البلقان فاحتلتها الجنود النمسوية وانتقل ميدان الحرب الى القرم كما سيجيء

وليس من غرضنا وصف كل المعارك التي حدثت في بلاد القرم بين الجنود الروسية وجنود الدول الاربع التي حاربتها اي تركيا وانكلترا وفرنسا وسردينيا المعارك التي زهقت فيها ارواح اكثر من ثلثمئة الف من الجنود وحرق فيها من البارود وتلف من المواد والامتعة ما يربو ثمنهُ على اربع مئة مليون من الجنيهات لان وصفها يملأ مجلداً كبيراً ولا يعنى بهِ الاَّ القواد ورجال الحرب ولكن لا يتصور القارىء صورة مجملة لتلك المعارك التي بلغت فيها الشجاعة مبلغ الجنون ويعت فيها النفوس بيع السماح وحنق فيها ابن آدم على اخيهِ حتى حاول ان يفنيهُ ويفني اعماله كلها معهُ ولو كانت جبالاً من الصخور وحصوناً مثل الجبال الاَّ اذا وصفنا بعضها وهذا سنفصلهُ في جزء تالٍ

وقد مضى الآن خمسة وخمسون عاماً ولم يبقَ من الذين حضروا تلك المعارك الاَّ نفر قليل يعدُّ على الاصابع لكن طول الزمن لم ينسهم اهوالها فاذا حدَّثوك عنها رأيت ان الروس حصَّنوا القرم كما حصنوا بورت ارثر اخيراً وانهم قُهروا في تلك كما قهروا في هذه بعد معارك تشيب الاطفال . وان القوة الغضبية الوحشية استعانت بكل قوى العقل ونتائج العلوم والفنون لكي تظهر في افتك مظاهرها حتى تبوَّر اسواق التجارة رائجة واموال الاغنياء وافرة وتملأ صدور القوَّاد بالارسمة والنياشين

اذا تسلط العقل فان اول شيء يفعلهُ انهُ يكسر تماثيل رجال الحرب وينصب بدلاً منها تماثيل الذين علَّموا الناس ان يحبوا بعضهم بعضاً واكتشفوا ما يزيل الآلام والاوصاب ويسهل مشاق الحياة